

التوسع الفينيقي في غربي المتوسط

1- لمحة عن الفينيقيين والحضارة الفينيقية:

أ- الموقع الجغرافي: يقع الساحل الفينيقي في الساحل الشرقي للمتوسط، يتوسط ثلاث قارات كبرى آسيا وإفريقيا ثم أوروبا جعلت منه محط ترصد وأطماع للشعوب المجاورة والمعروف حاليا باسم الساحل السوري اللبناني، تغطي مرتفعاته الثلوج لفترة طويلة من العام، يتميز الساحل الفينيقي بالضيق في الوسط والاتساع في الشمال والجنوب تحيطه الجبال من الشرق مؤلفة بذلك ما يعرف بسلسلة جبال لبنان الغربية والتي يصل ارتفاعها إلى 3028 متر عند قمة "القرنة السوداء" في جبال الكرمل، تنحدر تلك السلسلة من الجبال باتجاه الشرق نحو سهل البقاع الواسع الذي يفصل السلسلة الجبلية الشرقية عن الغربية في حين يتميز سهل البقاع باتساعه في الجنوب وضيقه في الوسط.

ويقع الساحل الفينيقي بين سوريا الحالية وفلسطين، وبذلك يتكون لبنان الحالي من ذلك السهل الساحلي الضيق والسلسلة الجبلية ومنخفض البقاع الممتد فيما وراءها، لكن الفينيقيين أنفسهم لم يسيطروا على أراض بمثل ذلك الاتساع، إذ كانت منشآتهم تقتصر على مدن تجارية ومرافئ، أسسوا مدنا مثل صور وصيدا وبيروت وغيرها أنشئت على رؤوس أرضية ساحلية أشبه بالجزر.

كما أن تضاريس البلاد الفينيقية وموقعها الجغرافي كان له تأثيره المباشر على توجهات الفينيقيين بعيدا عن عالم الزراعة والسهول التي لا نجد لها عدا في الشمال، فطبيعة المنطقة لا تسمح بوجود أنهار كبيرة نظرا لقرب الجبال من الشاطئ فكل الوديان عبارة عن أنهار قصيرة تفيض شتاء وتجف صيفا.

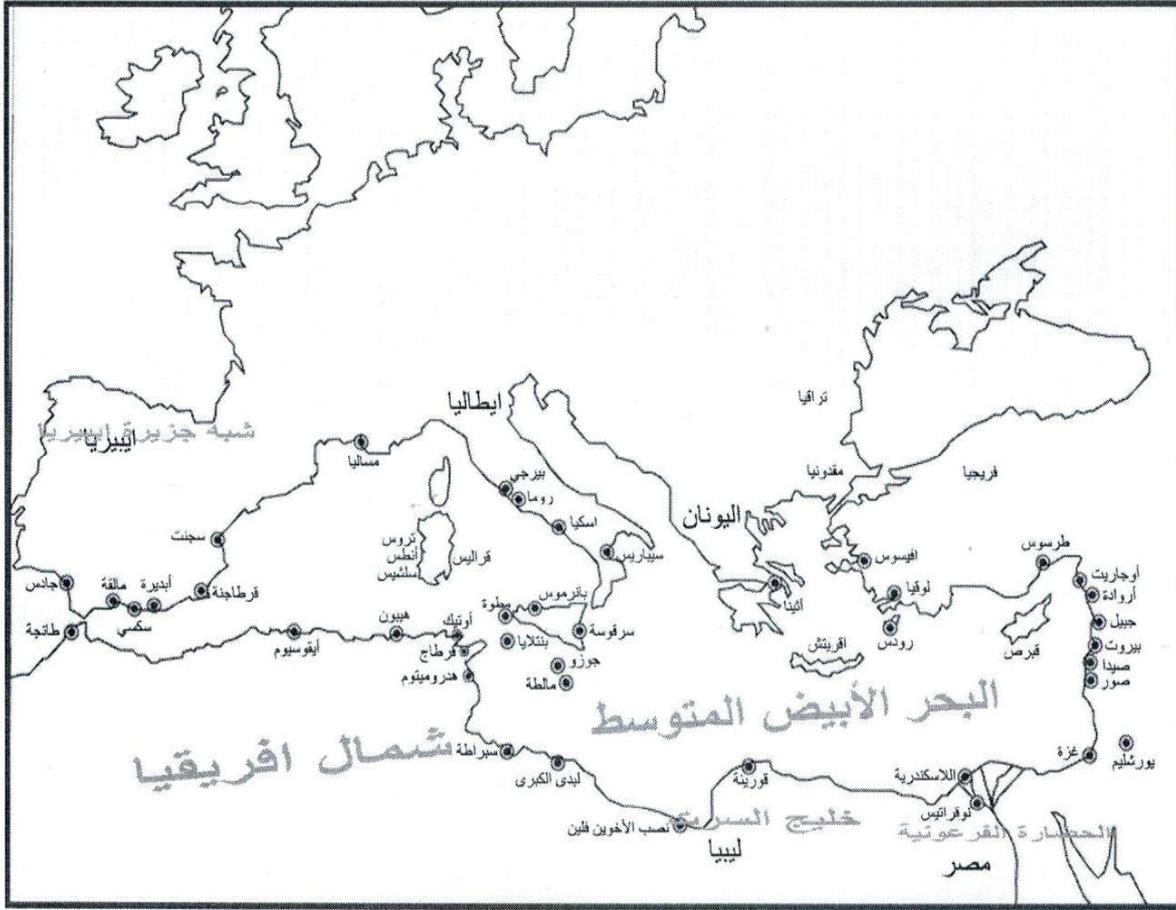
ب- أصل التسمية: التسمية الفينيقية مشتقة من الصفة **Phoinos** المأخوذة من اللفظ **Phoinios** والتي تعني في اللغة الإغريقية اللون أحمر المرتبط بالنشاط التجاري للفينيقيين فتكون بذلك التسمية الإغريقية مهنية وليست إثنية.

وقد احتفظ الفينيقيون باسمهم الأصلي الكنعانيون، إلى غاية القرن الثاني قبل الميلاد أين أطلق الإغريق على سكان الساحل اللبناني وشمال فلسطين مصطلح الفينيقيين وتعني "اللون الأرجواني" نسبة إلى اللون الذي عرف به هذا البلد في صناعة الأصباغ والملابس الأرجوانية، وقد وصفهم الشاعر الإغريقي هوميروس بالمهارة في ركوب البحر والصناعات اليدوية.

وهناك من يرى أن مصطلح الكنعانيين مشتق من الفعل ك ن ع ، وتعني الأرض المنخفضة ومنها جاء مصطلح الكنعانيين كما أن المصريين القدماء استعملوا "بي- كنعان" للدلالة على المناطق الجنوبية والغربية لبلاد سوريا ، أما الإغريق فقد أطلقوا مصطلح فونكس على الفينيقيين و التي تعني شجرة النخلة أي بلاد النخيل ولها معنى آخر وهو "الأحمر الأرجواني" ؛ وإطلاق الإغريق هذا الاسم "فينيقيا والفينيقيون" لاشتهار سكان المنطقة بصناعة الأقمشة ذات اللون الأحمر الأرجواني، الذي كانوا يستخلصون صباغة الأرجوان من قواقع الساحل السوري اللبناني.

ج- أصل السكان : والفينيقيين من أصول كنعانيين هاجروا من شبه الجزيرة العربية في الألف الثالثة قبل الميلاد ، وهم الذين يمثلون التطور الحضاري الذي شهدته منطقة لبنان وسوريا ثم فلسطين، مثل ذلك بداية تأسيس المدن الكنعانية التي ستعرف فيما بعد بداية الحملات العسكرية على المنطقة ، والتي عرفت صراعا طويلا بين العديد من القوى ، ومن أشهر المدن الفينيقية رأس الشمرة، اوغاريت جزيرة أرواد ، جبيل (بيبلوس) ، بيروت، صيدا ، صور ، عكا ، عسقلان ، غزة.... الخ .

ربط الفينيقيون علاقات وطيدة مع العديد من الشعوب المجاورة مثل الفراعنة والأشوريين والفرس واليونان والرومان فيما بعد وكثيرة ما ساءت العلاقات بين المدن الفينيقية و الإمبراطوريات الأخرى نجدها تنتهي بحروب و صراعات وتدمير للمدن الفينيقية .



خريطة: تمثل الساحل الفينيقي وحوضي المتوسط

- 2- أسباب التوسع الفينيقي في غربي المتوسط : تعددت الأسباب والدوافع التي حملت الفينيقيين على ركوب البحر والبحث عن مناطق نفوذ خارج فينيقيا وبعيدا عن صراع القوى الكبرى في المنطقة (الحثيين من الشمال المصريين من الجنوب و الأشوريين من الشرق) ومن أهم الأسباب نذكر :
- 1-الدوافع الاقتصادية: لقد كانت حاجة الفينيقيين إلى الموارد الاقتصادية¹ التي لم يكن بالإمكان أن توفرها لهم أرض لبنان الضيقة من بين أهم الأسباب التي دفعت بالفينيقيين إلى البحث عن مناطق

¹ - المواد المصنعة: من بين أهم المواد المصنعة التي كان يتاجر بها الفينيقيون البرونز والعاج والعظام والزجاج، وقد تطلب تواصل تصنيع تلك المواد البحث عن الخامات الأصلية المتوفرة في البيئات الأجنبية، ضف إلى ذلك صناعة الأقمشة وبصفة خاصة المصبوغة باللون الأرجواني. وقد اعتمد القرطاجيون مثل أسلافهم الفينيقيين في ذلك على استخراج هذه الصبغة الخاصة من بعض الأصداف البحرية التي عثروا عليها في سواحلهم... لمزيد من المعلومات أنظر:

-آسيا مسعودي، المرجع السابق، ص30.31

مزهرة غنية بالمواد الأولية (البرونز العاج العظم الزجاج) وبها أسواق يتم صرف الفائض من الإنتاج فيها، خاصة وان الفينيقيين تجار بالدرجة الأولى يميلون إلى السلم ولا يجذبون الحروب، وقد يدفعون الجزية للعدو إذا تطلب الأمر على أن لا يدخلوا في صراعات أو حروب وذلك بهدف ممارسة نشاطهم التجاري دون مشاكل .

كما أن البحث عن الحياة الأفضل والثراء والاكتشاف من أهم الأسباب التي تدفع الفرد نحو المغامرة والترحال عبر البحار لذلك اتجه الفينيقيون نحو البحر نظرا لضيق الشريط الساحلي المحدود الموارد والذي تحده الجبال من الناحية الشرقية ، و توفر الأخشاب الجيدة الصالحة لبناء السفن، زاد من رغبة البحارة الفينيقيين على ركوب البحر والمغامرة ، فضلا عن توفر التعاريج والخلجان التي تسهل إقامة الموانئ.

كما ان موقع فينيقيا الطبيعي لعب دورا بارزا في الدفع نحو الهجرة والترحال والبحث عن البدائل الاقتصادية في المستوطنات الجديدة التي تم الوصول إليها في مختلف سواحل وجزر المتوسط، كما ساعد توفر الأخشاب على وفرة صناعة القوارب والسفن ، ومع مرور الوقت تمكن الفينيقيون من إنتاج سفن متطورة كبيرة الحجم تستطيع الإبحار في المحيطات مبتكرين أساليب جديدة في ركوب البحر باستخدام النجوم في التنقل من مكان لآخر .

2- الدوافع السياسية : شهدت المدن الفينيقية تطورا اقتصاديا وازدهارا حضاريا كبيرا جعلها محط أنظار العديد من الشعوب المجاورة ، حيث أصبحت بؤرة توتر وصراعات داخلية وخارجية للسيطرة عليها كما حدث انشقاق و صراع داخلي بين المدن الفينيقية فيما بينها، وكان ذلك بسبب توافد شعوب جديدة عليها في الألف الثانية قبل الميلاد عرفت بشعوب البحر² كان لها الأثر الواضح في تردي الأوضاع الاقتصادية وتزايد عدد السكان وظهور الصراعات السياسية و العسكرية في المنطقة دفعت بالعديد من المدن للبحث عن تأسيس مستعمرات وتكوين مدن بعيدة يتم اللجوء إليها في الأوقات الصعبة والاستقرار بها.

3- الدوافع الاجتماعية : عرف الفرد الفينيقي الإبحار منذ أقدم العصور مستفيدا في ذلك من الأخشاب التي توفرها غابات فينيقيا القديمة وذلك في صناعة السفن وركوب البحر وهي أقدم وسائل

² شعوب البحر : شعوب البحر: أطلقت هذه التسمية على موجة بشرية هائلة اجتاحت منطقة الشرق الأدنى حوالي 1180 ق.م قادمة من شمال جزر شرقي البحر المتوسط زاحفة من بحر إيجه على الضفة الشرقية للمتوسط، ومن بينها قبائل الفلستر التي استقرت بجنوب بلاد كنعان فلسطين لاحقا إلى جانب قبائل أخرى والتي هاجمت مصر وصدتها رمسيس الثالث، فاتجهت نحو تلك المدن الكنعانية التي دمرت الكثير منها واستقرت في بعض منها مثل عكا - اسدود -عسقلان - غزة انظر: موسكاتي، الحضارة السامية، المرجع السابق، ص64

المواصلات التي ابتكرها الإنسان القديم، وقد اهتم الفرد الفينيقي كثيرا بصناعة السفن باعتبارها أساس النشاط البحري والتجاري بالنسبة له .

وتمركز الفرد الفينيقي على الساحل الفينيقي وتشكيل كيانات سياسية مستقلة على ضفاف البحر دفعه دائما إلى البحث عن التطوع واكتشاف ما وراء البحر لتلبية حاجياته وتصريف منتجاته وكذا البحث عن مناطق أكثر استقرارا من الساحل الفينيقي الذي بدأ يعرف صراعات داخلية وخارجية للسيطرة والاستقرار فيه، كما أن ظهور شعوب جديدة في المنطقة أدى إلى نزوح الكنعانيين من الأرياف والمدن الداخلية نحو المدن الفينيقية الساحلية حيث لم تستطع تحمل ثقل التزايد الديمغرافي، الأمر الذي دفع إلى البحث عن مناطق ومستوطنات جديدة يتم صرف النمو الديمغرافي فيها .

3 - مراحل التوسع الفينيقي في غربي المتوسط: يقسم المؤرخين مراحل التوسع الفينيقي في المتوسط إلى قسمين وإلى مرحلتين مرحلة الارتياح والاستكشاف الباكر و مرحلة الاستيطان والاستغلال:

- **مرحلة الارتياح والاستكشاف :** في غياب الشواهد الكافية الكلاسيكية والأثرية لم يتمكن المؤرخين من تحديد هذه الفترة بدقة حيث اجمع الكثير منهم أنها تبدأ في حدود أواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، اين تم فيها تأسيس مجموعة من المستوطنات منها مستوطنة اوتيكا سنة 1101 ق.م في الساحل الشرقي لتونس حاليا وقبلها بسنوات قليلة تم تأسيس مستوطنتي قادس بشبه الجزيرة الايبيرية و ليكسوس على الساحل الغربي للمغرب الأقصى سنة 1110 ق.م.

تمتد هذه المرحلة إلى غاية القرن الثامن قبل الميلاد أين اكتفى فيها الفينيقيون بتأسيس مراكز مؤقتة للراحة عند التنقل من منطقة لأخرى ولم يكن الهدف منها الاستقرار فيها، وما يؤكد ذلك غياب المقابر في هذه المراكز حيث لم يدفن الفينيقيون موتاهم فيها وكانوا يدفنونهم في الوطن الأم فينيقيا . وقد عرف الفينيقيون في هذه المرحلة مختلف مناطق المتوسط وشعوبها وكان ذلك عن طريق التبادل التجاري الذي تم عن طريق المقايضة بطرق سلمية أساسها الثقة في التعامل، الأمر الذي دفع بشعوب المتوسط إلى الرغبة في التعامل مع الفينيقيين لما وجدوا فيهم من ثقة في التعامل وما لهم من منتجات صناعية هامة تفتقر لها المنطقة .

- **مرحلة الاستيطان والاستغلال :** يمكن القول أن هذه المرحلة مكتملة للمرحلة الأولى حيث تحولت فيها المراكز التجارية والمستوطنات المؤقتة إلى مستوطنات دائمة للتجار الفينيقيين الذين اختاروا البقاء و الاستقرار فيها ولأبنائهم بديلا للوطن الأم في فينيقيا، أين أصبحت مدنا كبيرة نتيجة استقطاب عدد من الفينيقيين الذين هاجروا إليها لأغراض تجارية وأخرى أمنية بعيدا عن الصراعات الداخلية و الخارجية التي شهدتها المدن الفينيقية في فينيقيا ، وقد لعبت هذه المدن الدور الكبير في امتصاص الفائض السكاني

الذي تعاني منه فينيقيا الوطن الأم، حيث أصبحت هذه المستوطنات التي أسسها الفينيقيون في الحوض الغربي للمتوسط فيما بعد ملجأ لهم فيما بعد بسبب الهجمات الأشورية على المنطقة، وقد تنامت قوة المدن الفينيقية كثيرا في الحوض المتوسط وانتقلت الزعامة إلى إحداها والتي أصبحت تمثل القاعدة والسلطة المركزية لجميع المستوطنات بعد ضعف وسقوط السلطة في الوطن الأم ونقصد بذلك مدينة قرطاج.

4- مناطق التوسع الفينيقي في البحر المتوسط :

يذكر فنطر أن البحارة الفينيقيين بدؤوا التردد على غربي البحر المتوسط منذ أواخر الألف الثانية قبل الميلاد، أين أقاموا جسرا بحريا طويلا بين الحوضين، مستفيدين في ذلك من ظروف عسكرية وتقنية ، منها أفول نجم الأسطول الإيجي في المتوسط، مما جعل أبواب البحر مفتوحة أمامهم وكان ذلك في حدود 1200 قبل الميلاد أي غداة غزو شعوب البحر، وقد تمكن الفينيقيون من التوسع في كل من :

1 - التوسع في جزر المتوسط (قبرص، مالطا، صقلية، جزر الباليار ، سردينيا، شبه الجزيرة الأيبيرية):

- تم التوسع الفينيقي في قبرص منذ القدم تقريبا أواخر الألف الثانية قبل الميلاد وذلك بإنشاء مراكز تجارية ستتحول فيما بعد إلى مستوطنات تجارية وذلك لقربها الجغرافي من الساحل الفينيقي ولقربها من القارات الثلاث إفريقيا آسيا أوروبا فهي بمثابة المركز التجاري الأهم في عمليات التبادل كما أنها اشتهرت بنحاسها الذي كان يحول إلى سبائك ويتم تصديره إلى مصر و بلاد الرافدين .

- أما جزيرة مالطة فقد تم التوسع فيها هي الأخرى في الوقت الذي كانت فيه السفن الفينيقية تجوب وتكتشف خفايا المتوسط وربما تم اختيارها وتأسيس مستوطنات بها لموقعها الاستراتيجي لأنها كانت تتوسط الطريق الرابط بين ضفتي المتوسط عند مدخل قناة صقلية، كما أنها بوابة للمتوسط تساعد على حماية مناطق النفوذ القرطاجية في الحوض الغربي للمتوسط.

- تعتبر جزيرة صقلية من الجزر المهمة للفينيقيين في الحوض الغربي للمتوسط حيث كانت منطقة صراع بين الفينيقيين والإغريق وذلك لموقعها الاستراتيجي فهي همزة وصل بين إفريقيا و أوروبا كما أنها غنية بالمواد الأولية، عرفت استيطانها بشريا في قسمها الشرقي و الغربي ، وقد تم الاحتكاك الفينيقي في صقلية بكل من الإغريق و الاتروسك وأصبحت مركزا هاما للتبادل التجاري في المتوسط.

- عرف الفينيقيون جزر الباليار في رحلاتهم الأولى إلى غرب المتوسط وأسسوا فيها مراكز تجارية تحولت فيما بعد إلى مستوطنات تم الاستقرار فيها وكان استيطانهم بجزيرة ايبيزا حوالي 654 ق.م واتخذها الفينيقيون كمركز عسكري وقاعدة بحرية للأسطول الفينيقي باتجاه إفريقيا و شبه الجزيرة الأيبيرية .

- والاستيطان في جزيرة سردينيا كان بسبب موقعها الاستراتيجي فهي تقع جنوب القارة الأوروبية تصل الشمال بالجنوب والشرق بالغرب كما أنها غنية بالموارد الطبيعية والأراضي الزراعية الجيدة التي تستمد منها فينيقيا منتجاتها الفلاحية .

- وصل الفينيقيون إلى شبه الجزيرة الأيبيرية بحثا عن المعادن (الذهب الفضة القصدير) وتصريف الفائض من الإنتاج وتسويقه في المناطق البعيدة وقد أدى ذلك إلى ربط علاقات مع شعوب مختلفة في المتوسط وتم تأسيس أقدم مستوطنة نعرفها في حدود 1110 ق.م وهي مستوكنة قادس والتي كانت غنية الفضة القدير و النحاس كما أسسوا مدينة مالقا malga المشهورة بتجفيف الأسماك.... الخ .

- التوسع على سواحل شمال إفريقيا (المغرب الأقصى، الجزائر، تونس، ليبيا)

- من أهم و أقدم المستوطنات الفينيقية في المغرب الأقصى نجد مستوطنة ليكسوس lixos تقع على الساحل الأطلسي في غرب المغرب الأقصى واستمر التواجد الفينيقي في ليكسوس حتى بعد تأسيس قرطاج لموقعها الاستراتيجي الهام ولغناها بالمواد الفلاحية و المعادن، أما تاريخ تأسيسها فيرجح بأواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد، حيث نجد فيها الكثير من البقايا الأثرية التي توحى بالمدينة الفينيقية المزدهرة و التي فيها ما يشير إلى الموقع الاستراتيجي و علاقاتها مع العالم الخارجي الفينيقي، كما نجد أيضا مستوطنة فينيقية في جزيرة موغادير mogadore التي لا تقل أهمية عن ليكسوس فقد أثبتت الحفريات الأثرية كثرة العلاقات التجارية التي تربط المدينة بالمدن الفينيقية الأخرى والمدن الإيطالية، وقد اشتهرت بصناعة الفخار وصناعة الأرجوان ، كذلك نجد مستوطنة فوليبيليس volubilis وتسمى أيضا مدينة ويلي أو قصر فرعون وهي مدينة داخلية تقع جنوب المغرب الأقصى حاليا ، ونجد مدينة تموسيدة thamusida و كواس kouass و طنجة tanger.... الخ

- اما في الجزائر فنجد ان معظم المدن و المستوطنات الفينيقية تقع على الساحل نذكر منها :

- مستوطنة ايكوزيوم icosium (الجزائر العاصمة حاليا)، وقد عرفناها بهذا الاسم في العهد الروماني ، وهناك من يرى أن هرقل هو أول من قام بتأسيس هذه المستوطنة ليوصل سيره إلى الغرب تاركا فيها قرابة عشرون فردا وهم من أسس المدينة حيث أخذت المدينة تسمية عددهم العشرين ايكوسي eikosi في اللغة اللاتينية ، في حين أن الشواهد الأثرية أثبتت أن الفينيقيين هم أول من أسس المدينة وتقع إلى الغرب منها مستوطنات فينيقية أخرى نذكر منها: مستوطنة تيبازة وقد كان الهدف من تأسيسها تجاريا نظرا لموقعها الممتاز، مستوطنة ايول Iol (شرشال حاليا) ويعتقد أن اسمها اخذ من احد أسماء الآلهة الفينيقية، مستوطنة قورايا وهي مستوطنة لا تبعد عن شرشال سوى 33 كلم وقد أجريت فيها حفريات أثرية كشفت عن وجود مقابر بونية تعود للقرن الرابع و الثالث قبل الميلاد، مستوطنة كارتينا cartenna (تنس حاليا) ، بورتوس ماغنوس portus magnus (ارزيو حاليا)

بوهران)، الاندلسيات **andalous les** (بوهران حاليا)، مرسى مداح بوهران ،
رشقون **rachgoune** بتلمسان، سيغا **sig** بعين تيموشنت.

أما المستوطنات الفينيقية التي تقع شرق ايكوزيوم فهي كثير نذكر منها : روس غونية
RUSGUNIAE (برج البحري)، روسي بيكاري (مرسى الحجاج)، روسو كورو (دلس حاليا
بومرداس) ، مستوطنة صالداي **salda** (بجاية حاليا)، **ijiljli** (جيحل حاليا) ، شولو
chullu(القل بسكيكدة)، روسيكا **rusikade** (سكيكدة حاليا)، هيبوريجيوس **hippo regius**
(عنابة حاليا).

كما سجل الحضور الفينيقي الاستيطان في المناطق الداخلية منها تبسة قالمة سیرتا ميلاف وتيديس
الأمر الذي يوحى بالتأثيرات الفينيقية في الحوض الغربي عموما و الجزائر على الخصوص .

- اما المستوطنات الفينيقية في تونس نجد: مستوطنة أوتيكا **utika** والتي تعد من أقدم المستوطنات
الفينيقية على الساحل الشمال الإفريقي وبالتحديد في الشمال الشرقي لتونس حاليا وقد تم تأسيسها
حوالي القرن الثاني عشر قبل الميلاد 1101 ق.م و تم تأسيسها قبل مستوطنة قرطاج **carthage**
التي تأسست في القرن التاسع قبل الميلاد سنة 814 ق.م ، نجد أيضا مستوطنة
carcaouane كركوان وتقع هي الأخرى في الشريط الشمالي الشرقي لتونس كما أنها لا تقل أهمية
عن أوتيكا و قرطاج ، من المدن الساحلية نجد أيضا سوسة (حضر موت **Hadrumetum**) ،
مستوطنة المونستير **ruspina** ، ومن المستوطنات الداخلية نذكر مدينة زامة **zama** ، دوقة **douga**
..... الخ .

- أما الاستيطان الفينيقي في ليبيا أو في طرابلس **tripolis** التي تعني الثلاث مدن وهي كل من لبدّة
الكبرى - أويا - صبراتة وهي مدن أسسها الفينيقيون على الساحل الليبي ، وتعتبر مدينة أويا إحدى
أهم المراكز التجارية الفينيقية في المتوسط، لبدّة الكبرى³ **leptis magna** ، وهي أيضا من أهم
المستوطنات الفينيقية فقد شهدت حركة تجارية كبيرة مع مختلف المدن الفينيقية في المتوسط ، نذكر أيضا
مدينة برقة **barka** ، وقورينا **corenae** ، ايون اكر ، كراكس الخ .

³ - لبدّة **Leptis** : تعتبر مدينة لبدّة الكبرى من أهم المستوطنات القرطاجية وأكثرها نشاطا، بحيث كانت تمثل ملتقى للتجارة
الصحراوية خاصة بعدما زودت بميناء هام يستطيع أن يستقبل حوالي ستين سفينة في فترة زمنية واحدة، كما زودت بإشارات توجه
الملاحين. ولأسباب أمنية كان الميناء يغلق بسلاسل حديدية ثقيلة، وبفضله أصبحت لبدّة مدينة كبيرة تربط بين البحر المتوسط وإفريقيا
وأصبحت تمثل أيضا العاصمة الإدارية والاقتصادية. لمزيد من المعلومات أنظر: لوزيرة آيت اعمارة، المرجع السابق، ص151..



خريطة رقم 05: تمثل أهم مناطق التوسع الفينيقي في حوض البحر الأبيض المتوسط